الباشا يبكي

وبعد مرور كل هذه الأحداث المتلاحقة والمثيرة، كان لابد للباشا من آن لآخر أن يجلس مع لاظ بك تلك الجلسة التي تعيد له توازنه النفسي، وتعدل من مزاجه فيحتسيان معًا القهوة، ويتبادلان أطراف الحديث الماتع، وعلى الرغم من وجود جميع أفراد أسرة الباشا في مصر، إلا أن لاظ كان له وضع خاص لم يتمكن أحد من أن يحل محله لدى الباشا، وكان الباشا قد بنى قصرًا في شبرا، وعديد من المنشآت الأخرى، فكان لقاء لاظ بالباشا يتم أحيانًا في القلعة، وأحيانًا في شبرا أو في أيَّة استراحة من استراحات الباشا بالجيزة أو غيرها.

وبينما كان لاظ في بيته يستعد للتوجه للباشا، إذ يصله خبر مفجع، وهو وفاة طوسون ابن الباشا والمحبب إلى قلبه، فأسرع وتوجه إلى الباشا، فوجده قد عرف الخبر، ولم يتمالك نفسه من البكاء، وكانت هذه المرة الأولى في حياة لاظ التي يرى فيها محمد علي يبكي، فقد كان يراه دائمًا رمزًا للقوة والدهاء، حتى إنه لم يكن يتخيل أن هذا الجبل الشامخ له مشاعر أو أحاسيس كباقي البشر، يا لها من فاجعة أظهرت الأب الإنسان الذي بداخله. وقد سجل الجبرتي بالطبع ترجمة طوسون باشا كما تعوّد أن يسجل تراجم الوفيات في نهاية أحداث كل سنة في كتابه، فقال عنه: "ومات طوسون باشا، وهو المقر

الكريم المخدوم أحمد باشا، الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا، مالك الأقاليم المصرية والأقطار الحجازية والثغور وما أضيف إليها، سافر المترجَم إلى البلاد الحجازية، وحارب الوهابية فكانت النصرة له، ولما عاد إلى مصر أراد أن يسافر إلى جهة رشيد، فأخذ العساكر وسافر إلى جهة الحماد، وجعل عرضي خيامه هناك، وصار يتنقل من العرضي إلى رشيد ثم إلى برنبال، وأبي منضور والعزب، وكان صحبته من مصر أرباب الآلات المطربة المغنين، وهم إبراهيم الوراق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقائهم، ثم ذهب ببعض خواصه إلى رشيد، ومعه الجماعة المذكورون، فأقام أيامًا وحضر إليه من جهة الروم جوار وغلمان قاصون، فانتقل بهم إلى قصر برنبال، ففي ليلة حلوله بها، نزل به ما نزل من المقدور؛ فتمرض بالطاعون، وتململ به نحو العشر ساعات، وانقضى نحبه، وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف، الموافق ٨ أكتوبر ١٨١٦م، وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد، وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه، فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق، ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره. وكان والده بالجيزة، فلم يتجاسروا على إخباره، فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك، فلما علم بوصوله ليلًا استنكر حضوره في ذلك الوقت، فأخبره عنه أنه ورد إلى شبرا متوعكًا فركب في الحين القنجة وانحدر إلى شبرا، وطلع إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول: أين هو؟

فلم يتجاسر أحد أن يخبره بموته، وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلى بولاق، ورسوا به عند الترسخانة، وأقبل كتخدا بيك على الباشا فرآه يبكي، فانزعج انزعاجًا شديدًا، ونزل السفينة فأتى بولاق آخر الليل، وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان، فركبوا بأجمعهم إلى بولاق وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي، ثم نصبوا ساترًا على السفينة، وأخرجوا الناروس ونصبوا عودًا عند رأسه، وضعوا عليه تاج الوزارة الذي اسمه الطلخان، وانجروا بالجنازة من غير ترتيب، وجميعهم مشاة أمامه وخلفه، وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد المكاتب والأحزاب شيء، من ساحل بولاق على طريق المدابغ وباب الخرق على الدرب الأحمر على التبانة إلى الرميلة، فصلوا عليه بمصلى المؤمنين، وذهبوا به إلى المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموتاه كل هذه المسافة، ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي.

ومع الجنازة أربعة حمير تحمل القروش وربعيات الذهب ودراهم أنصاف عددية، ينثرون منها على الأرض، وساقوا أمام الجنازة ستة رءوس من الجواميس الكبار، وأخرجوا لإسقاط صلاته خمسة وأربعين كيسًا تناولها فقراء الأزهر.

ولما وصلوا إلى المدفن هدموا التربة، وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجه منه بسبب انتفاخه وتهريه، حتى إنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخور والرائحة غالبة على ذلك، وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل

الأفراح ودق الطبول، ونوبة الباشا وإسماعيل باشا وطاهر باشا، وأقاموا عليه العزاء عند القبر مدة أربعين يومًا، ومات وهو مقبل الشبيبة لم يبلغ العشرين، وكان أبيض جسيمًا بطلًا شجاعًا جوادًا، له ميل لأولاد العرب، منقادًا لملة الإسلام، وكان يعترض على أبيه في أفعاله، وتخافه العسكر وتهابه، رحمه الله تعالى.

وقرر الباشا أن يبني سبيلًا كصدقة جارية على روح ابنه، فجاء هذا السبيل قمة في الروعة، وهو يقع في الغورية بالقرب من باب زويلة وعلى رأس حارة الروم، ولقد مضى وقت طويل ليتجاوز الباشا تلك الصدمة ويعود إلى حالته الطبيعية، وكان أكثر ما يخفف عنه هو رؤية حفيده اليتيم عباس ابن طوسون الذي لم ينعم بمصاحبة والده. ولقد كان الباشا على الرغم من شخصيته القوية أبًا حريصًا على أبنائه، عطوفًا بهم، كما أنه كان شديد الاحترام لزوجته الأولى المثالية أمينة هانم، معتنيًا بشئونها، وكان من أشهر أبنائه إبراهيم، وهو أكثرهم شبهًا به وطوسون وإسماعيل وسعيد وحسين وعبد الحليم ومحمد علي الصغير، أما أشهر بناته فنازلي هانم زوجة محمد بك لاظ، وتوحيدة هانم زوجة محرم بك الضابط البحري الشهير الذي أصبح حاكم الإسكندرية، وزينب هانم الرابعة، وكان من أصهاره أيضًا محمد بك الدفتردار، ولكنه لم يصل إلى مكانة محمد بك لاظ بطل قصتنا لدى محمد علي باشا، فقد كان أقرب أزواج بناته إليه.